# الأبعاد التداولية للنص الشعري الجزائري القديم (قراءة حجاجية لقصيدة حماد بن بكر التيهارتي في رثاء علي بن أبي طالب)

# The dimensions pragmatic of the ancient algerian poetic text on ali ibn abi taleb Pilgrimage reading of hamad Ibn Bakr poem

**بن عمارة محمد**[1]

[1] **جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، الجزائر. mohamed.benamara.etu@univ-mosta.dz**

**تاريخ الاستلام: 2021/04/26 تاريخ القبول: 2021/05/10 تاريخ النشر: 2021/06/01**

**ملخص:**

تسعى هذه الدراسة إلى مقاربة الأبعاد التداولية المسجلة في بنية النص الشعري الجزائري القديم، وذلك بتسليط النظر على مجموع الاستراتيجيات الحجاجية، والتقنيات الخَطابية التي يعتمدها الشاعر في الاحتجاج لرأي ما، أو في دحض آخر، وقد وقع اختيارنا على مرثية الشاعر الجزائري حماد بن بكر التيهارتي لاعتبارين، يتمثل الأول في الظروف الإنتاجية المصاحبة لهذه القصيدة، والتي جاءت في سياق الرّد على أحد الشعراء المشارقة الذي قام بمدح عبد الرحمان بن ملجم المرادي قاتل علي رضي الله عنه، أمّا الاعتبار الثاني فجاء نظراً لما تحويه هذه القصيدة من أبعاد تداولية ومقومات حجاجية سعى من خلالها حمّاد بن بكر تبرير دفاعه ورثائه لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وسعيه إلى استمالة متلقيه ودفعهم إلى تبني مواقف عدائية تُجاه قاتل علي، ومن هذا المنطلق جاءت هذه الورقة البحثية لتكشف عن الأبعاد التداولية المسجلة في بنية القصيدة، والتقنيات الحجاجية التي سخرها حماد في دفاعه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

**كلمات مفتاحية:** التداولية، الحجاج، حماد بن بكر التيهارتي، علي بن أبي طالب.

**المؤلف المرسل:** بن عمارة محمد

***Abstract:***
***This study seeks to approach the pragmatic dimensions recorded in the structure of the ancient Algerian poetic text by highlighting the whole range of dialectical strategies and rhetorical techniques adopted by the poet in protesting an opinion Or in a further rebuttal, our choice was made by the Algerian poet Hamad Benbakir al-Tiharti for two considerations, the first being the productive conditions accompanying this poem. This was in response to one of the famous poets who praised Abd al-Rahman ibn Maljam al-Muradi, the assassin of Ali, and the second consideration, given the deliberative dimensions of this poem and its authoritative elements. Hamad ibn Bakr sought to justify his defence and bequest of Ali ibn Abi, seeking God's satisfaction. From this point of view, this research paper reveals the deliberative dimensions recorded in the poem's structure and the hijab techniques used by Hamad in his defence of Ali ibn Abi taleb, a student of God's satisfaction.***
***Keywords: pragmatic; argument; Hamad Benbakir al- ali ibn abi taleb***

**. مقدمة:**

قُرئ الشعر العربي القديم كثيرة، وتناوله الدارسون من زوايا عديدة، وظلّ موضوعاً مثيراً للنظر والبحث والقراءة، ولاسيما بما وفرته لنا المعارف الحديثة من مناهج وآليات أبانت عن مرونة ونجاعة في استنطاق مختلف النصوص والأجناس الأدبيّة، وقد اخترنا في هذه المداخلة أن ننظر للشعر من زواية مغايرة تُعنى بالحجاج والمحاجّة متخذين من نونية الشاعر الجزائري الكبير حماد بن بكر التيهارتي نموذجًا للدراسة والمقاربة، والتي تُعدّ من أطول قصائده، وأجودها، وأشهرها ذيوعاً، فضلاً عما تختزنه من مضامين تاريخية وإنسانية تعكس تعلق حماد بآل بيت النبي صلى الله عليه وسلّم، وانتصاره لصهره علي بن أبي طالب، وقد تنوعت هذه القصيدة في مضامينها بين رثاءٍ، وثناءٍ، وحزنٍ، وردٍ، وانتصارٍ حتى عُدُّت ميداناً للتحاجج بين حماد، وبين الشاعر عمران بن حطان الذي مدح عبد الرحمان بن ملجم المرادي قاتل عليه بن ألي طالب، وعليه سنحاول في هذه المداخلة بحث مجموع التقنيات الحجاجيّة، والآليات الخطابيّة التي اعتمدها حماد في الدفاع والذّب عن علي بن أبي طالب، وفي الرد على عمران بن حطان، مستبصرين في ذلك بنظرية

الحجاج التداولي التي أرسى قواعدها كل من الباحثين شاييم بيرلمان، وألبرخت تيتكاه، كما ستحاول هذا المداخلة الإجابة على الإشكاليات التاليّة:

- ما مفهوم التداولية في الدراسات الحجاجية المعاصرة بتفرعاتها البلاغية والمنطقية واللسانية.؟
- ما هي المقومات الحجاجيّة والتقنيات الخطابيّة التي اعتمدها حماد بن بكر التيهارتي في الدفاع عن علي بن أبي طالب.؟

أمّا الإشكال المركزي الذي سيحرّك هذه المداخلة هو:

- هل يتسع الشعر للوظيفة التخييّليّة والحجاجيّة معا.؟

وهذا ما سنحاول الإجابة عنه في الخاتمة.

## 2.مفهوم التداولية في الدراسات الحجاجية المعاصرة.

لقد كانت الإنطلاقة الفعلية للبحث التداولي – كما هو معلوم– من الأبحاث الفلسفية التي شكلت منعطفاً حاسمًا ونقلةً نوعيةً في تاريخ الدراسات اللغوية، فانصب البحث في قضايا فلسفة اللغة، والفلسفة التحليلية، والاستعمال اللغوي وغيره من القضايا التي جاءت كردة فعلٍ على المقاربات اللغوية الشكلية التي أهملت دراسة بعض الجوانب اللغوية، هذا وقد تعددت القضايا التي تطرق له الدرس التداولي المعاصر من فلسفة إلى لسانيات إلى منطق إلى قضاء وغيرها من الحقول المعرفية التي وجدت ضالتها في الدرس التداولي، وما يهمنا في هذا المقام هو تلك العلاقة التي تربط بين الدراس التداولي بالدرس الحجاجي المعاصر بشقيه البلاغي واللساني، وهذا ما سنحاول ضبطه في هذا المبحث قبل التطرق للشق التطبيقي من الدراسة.

### 1.2. مفهوم التداولية في الدراسات البلاغية.

يعد شاييم بيرلمان وألبرخت تيتكاه من أهم البلاغيين الذين انشغلوا بالحجاج التداولي argumentation pragmatique في كتابها (في نظرية الحجاج "البلاغة الجديدة")، ويُعرفاه بقولهما: «هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من

أطروحات, أو تزيد في درجة ذلك التسليم» (عبد الله صولة، 25، 2007) مفهوم ارتبط بمختلف أنواع الحجج المودعة في الخطاب, والتي تعمل على إقناع persuasion المتلقي بما يعرض عليه من أفكار وآراء وتصورات ودفعه نحو العمل والانجاز, أو تدعيم تسليمه بأفكار مسبقة كانت عنده محلّ شكٍ, فالمفهوم الذي بين أيدينا ركزّا فيه بيرلمان وتيتكاه على ضرورة البعد العقلاني التداولي للحجاج، وعدم اعتباطيته وتلاعبه بعواطف المتلقي, لأن الحجاج في نظرهما معقولية وحرية, يستطيع المتلقي بموجبها الاعتراض على ما يُعرض عليه من أفكار وتصورات, عكس الاستدلال الصوري الصارم الذي يجعل المخاطَب في حالة ذهول وخضوع واستلاب (عبد الله صولة، 13، 2004)، ويعرفاه في موضع آخر انطلاقا من بُعده التداولي فيقولان: «غاية كل حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان, فأنجع حجاج ما وُفّق في جعل حدّة الإذعان تُقوِى درجتها لدى السّامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب – إنجازه أو الإمساك عنه– أو ما وُفِق على الأقل في جعل السامعين مهيئين إلى ذلك العمل في اللحظة المناسبة» (عبد الله صولة، 13، 2004)، تعريف ركزّا فيه على الغائية لا الماهية, إذْ نلمحه يقرن الحجاج بالإقناع الذي يُعد جوهر المقاربة التداولية وغايتها المنشودة, والذي يُقدِمُ من خلاله المتلقي على فعل إنجازي أو يُمسك عنه, أو يتهيأ للقيام بعمل ما، لذلك يُعرَّف الحجاج بوصفه فعلاً يتّسم بالبراغماتية, فبيرلمان بهذا التعريف انتقل من دائرة الخطاب والتلفظ إلى دائرة ما ينتج عن الخطاب من تغيير السلوكات والمعتقدات ودفع المخَاطبين إلى الفعل والعمل والإنجاز، وعليه يمكن القول أنّ الحجاج هو تلك العلاقة التخاطبية التفاعلية بين المخاطِب والمخاطَب/المخاطبين مبنيّةٌ على أسس عقلية طابعها العقلانية وحرية الاختيار، ونجاعتها مرهونة بما يحدث خارج الخطاب من سلوكات، وهذا ما يؤكد عليه بيرلمان بقوله: «ليس الحجاج في النهاية سوى دراسة لطبيعة العقول, ثمّ اختيار أحسن السبل لمحاورتها, والإصغاء إليها, ثمّ محاولة حيازة انسجامها الايجابي والتحامها مع الطرح» (محمد سالم ولد الامين، 68، 2013)، وهنا يركّز بيرلمان على ذهنية المتلقي, التي لا يستطيع المحاجج استمالتها بدون معرفة طبيعة

تفكيرها ومواطن ضعفها، وبهذا يمكن القول أنّ الدرس التداولي الدرس يشترك مع البلاغي الحجاجي في المآلات والاهداف، فكلاهما يروم التأثير والتغيير في السلوكات والدفع نحو الإنجاز والفعل.

## 2.2 مفهوم التداولية في اللسانيات الحجاجية.

إن كانت رؤية بريلمان للحجاج رؤية بلاغية تداولية, فقد تناوله أزفالد ديكرو وجون كلون انسكومبر من وُجهة لسانية تداولية رأى من خلالها أن اللغة تحمل في جوهرها وظائف حجاجية وتداولية تأتي من بنية الأقوال اللغوية, (رشيد الراضي، 255، 2005) ليعالجا في مشروعهما التداولي ما تتضمنه الأقوال من طاقات حجاجية انجازية قارة في بنية اللغة، ويرى الباحثان أنّ المتكلم في اللحظة التي يتكلم فيها يُوجه قوله وُجهة حجاجية محدّدة ومقصودة (شكر المبخوت، 352، 2004) تكشفها العلاقات والتسلسلات المنطقية والإمكانات التركيبية التي تمنحها اللغة للمتكلمين، ليصبح بذلك مجال اشتغال هذه النظريّة في رصد ما تتضمنه الأقوال من طاقات حجاجيّة يتمكن بموجبها المتكلم من توجيه أقواله نحو وِجهة حجاجيّة معيّنة (شكرا المبخوت، 352، 2004)، فالحجاج بهذا المعنى يُصبح عبارة عن ترابطات تقنيّة تفضي إلى نتائج محدّدة، أي أنّ الخطاب له طبيعة توجيهيّة تنبع من داخله، يحدّدها المقام، ويوجهها المتكلّم.

هذا، وقد ركز الباحثان في مشروعها البحثي على ما يسمى بالتداولية المدمجة والتي تُعنى بالبحث عن الجوانب التداولية المسجلة في بنية اللغة ، وذلك باستخراج الأشكال اللغوية ذات القيمة التداولية وضبط شروط استعمالها، فاللغة من منظور التداولية المدمجة يترتب عنها تحقيق أفعالاً خارج الخطاب، وليست وصفا لحالة الأشياء في الكون فقط (شكر المبخوت، 354، 2004)، وقد ترتب عن هذا التصور لذلك رفض ومعارضة التصنيف التَرَاُتبي الذي اعتمدته اللسانيات التقليدية في مقاربتها، بحيث تقسمها إلى مستويات متتالية تبدأ بالتركيب وتُتْبع بالدلالة وتنتهي بالتداول، وعلى عكس هذه المقاربة رأى الباحثان أن هذه المستويات التحليلية ليست منفصلة، ولاسيما المستوى الدلالي والتداولي الذي جعل ديكروا وأنسكومبر يؤكدان على أنّ «معنى أي ملفوظ، وحتى في الحالة التي نقدم فيها للكلمة مفهومها الأكثر ضيقا – أي الأكثر نحوية – لا يمكن أن يوصف دون استحضار مقصديات معينة لتلفظه» (عادل عبد اللطيف، 98، 2013) فالمعطى التداولي لا ينفصل عن جل المستويات التحليلية، إن لم نقل بأنه مستوى

فرض وجوده على كل المستويات التحليلية – نحوية، صرفية، دلالية، بلاغية، معجمية –. فالحاجز الذي أقامته اللسانيات الكلاسيكية بين هذه المستويات قام ديكرو بهدمه عن طريق دمج هذه المستويات مع بعضها البعض.

ويتوفر الخطاب الحجاجي عند ديكرو على بعض العلامات التي تحدّد أبعاده التداولية والحجاجية, وهذه العلامات هي عبارة عن آليات تشتغل داخله بصوَرٍ مختلفة, فتكون تارة عبارة عن أفعال كلامية، أو استلزامات حوارية، أو عوامل حجاجية, أو روابط حجاجية, أو سلالم حجاجية، أو بعض الظواهر كالقسم، والاستفهام، والتضمين، والإقتضاء....إلخ (رشيد الراضي، 255، 2005) فالاهتمام في المقاربة التي قدّمها ديكرو وأنسكومبر يكون مرّكزاً بدرجة كبيرة على الوسائل اللغوية, وإمكانات اللغة الطبيعية التي يُسخرها المتكلم في توجيه خطابه نحو وجهة حجاجيّة محدّدة، وهذا ما سنحاول التركيز عليها في مقاربتنا التطبيقية لقصيدة حماد بن بكر.

## 3. التحليل الحجاجي لمرثية حماد بن بكر التيهارتي:

نروم في هذا المقام إبراز التقنيات الحجاجيّة بشقيها البلاغي واللساني، والطاقات الإقناعية التي انبنت عليها مرثية حماد بن بكر التيارتي لعلي بن أبي طالب، وقد رأينا أن نتخذ منها متناً تمثيلياً لكي تُتيح لنا الكشف عن الطبيعة الحجاجيّة التي يُفرزها الشعر, ووقع اختيارنا على حماد بن بكر نظراً للسياق العام الذي تخلّقت فيه هذه القصيدة، وهو سياق المحاججة والرّد على الشاعر المشرقي عمران بن حطان الذي قام بمدح قاتل علي بن أبي طالب، فالظرف الذي حكم إنتاج القصيدة والشروط المحيطة بها أي سياق الموقف، هو الذي حدّد الحالة الحجاجية لهذه القصيدة، ومنحها حرارةً دفعتنا إلى فحصها وتحليلها وفق مقاربة حجاجيّة لسانية تتيح لنا الكشف عن أبعادها التداولية، وعن الآليات الحجاجية التي اعتمدها حماد في الذّب عن علي بن أبي طالب وفي الرّد عن الشاعر الشرقي عمران بن حطان.

### 1.3. السياق التاريخي للقصيدة لمرثية حماد بن بكر التيهارتي.

إنّ إعادة بناء السياق في النظرية الحجاجية المعاصر ضرورةٌ لا تنفصل عن دراسة تشكلات النص وتقنياته الخطابية, لذلك رأينا أنه من الضروري إعادة بناء السياق التاريخي للقصيدة, بناء يتوافق مع الرؤية التداولية المعاصرة, والتي تنادي بضرورة صياغة جديدة لسياقات النصوص القديمة, وذلك لاكتساب «معرفة جديدة بالمتكلم والمخاطب وطبيعة العلاقة بينهما والسياق المكاني لتداول الخطاب» (عماد عبد اللطيف، 26، 2013)، وعليه يمكن القول أنّ إعادة بناء السياق يبعث الحياة والروح في النصوص القديمة بحيث تصبح معاصرة وتمكِّن الدارس من التعامل معها بمورنة أكثر، وتضيء لها جوانب قد يغفل عنها بدون إعادة بناء السياق.

ينقل أبي عمر يوسف القرطبي في تاريخه الإستيعاب في معرفة الأصحاب، أنّه لما قتل عبد الرحمان بن ملجم المرادي علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه في رمضان سنة (40هـ) مدحه عمران بن حطان بأبياتٍ من الشعر فقال:

لله درّ المرادي الذي سفكت  كفاه مهجة شرّ الخلق انسانا.

أمسى عشيّة أغشاه بضربته  ممّا جناه من الآثام عريانا.

ياضربة من تفيّ ما أراد بها  إلاّ ليبلغ من ذي العرش رضوانا.

إنّي لأذكره حيناً فأحسبه  أوفى البرية عند الله ميزانا.(يوسف القرطبي540، 1994)

فعارضه الكثير من الشعراء، وحاولوا الرّد على هذه الأبيات الشنيعة، إلاّ شاعراً من أهل المغرب يدعى حماد بن بكر التيهارتي هو أبرز من شفى وكفى في مرثيته التي يردّ بها على عمران بن حطان وينكر عليه أبياته، والتي يقول فيها راداً عليه:

فلا عفا الله عنه ما تحمّلهُ  ولا سقى قبر عمران بن حطان.

لقوله في شقيّ ظلّ مجترما  ونال ما ناله ظلماً وعدوانا.

يا ضربة من تفيّ ما أراد بها  إلاّ ليبلغ من ذي العرش رضوانا.

بل ضربة من غويٍّ أورثته لظى  مخلداً قد أتى الرحمان غضبان(يوسف القرطبي،540، 1994)

على ضوء هذه المعطيات، نستنتج أنّ لهذه القصيدة سياقها الخاص الذي أنتجها, وهو رد حماد بن بكر التيهارتي الزناتي على عمران بن حطان الذي مدح قاتل علي، وتغنى به، وافتخر بفعلته، لذلك جاءت هذه القصيدة من حماد كتعبير صادق عن حبه وولائه ودفاعه عن صهر النبي صبى الله عليه وسلم، وهو موقف المناصرة والإقرار بمناقبه ومنزلته وشجاعته ونسبه وقرابته التي تمتد للنبي صلى الله عليه وسلّم، والرد على كل من يشكك في ذلك ، فإنتاج القصيدة تمّ في سياق عام يتشكلّ من حماد بن بكر باعتباره (المرسل) وعلي بن أبي طالب باعتباره (صحابي متنازع حول مكانته، وقاتله بين المدح والذم) والخارجي عمران بن حطان وسائر أتباعه من الخوارج (كمتلقين للخطاب).

### 2.3.نص القصيدة.

تندرج مرثية حماد بن بكر التيهارتي ضمن القصائد المشهورة التي خلّدها التاريخ وتغنى بها الكثير من النقاد الأدباء والرجاز والشعراء في المشرق والمغرب، فدخل بها حماد تاريخ الأدب العربي الحافل من بابه الواسع، ونظراً لقصرها وأهميتها آثرنا نقلها للمتلقي لنعرفه بهذا الشاعر الفذ الذي لم يلقَ العناية التي تليق بمكانته الأدبية، لا سيما في المغرب عمومًا وفي الجزائر خصوصًا، يقول حمّاد في مرثيته:

1. قُل لابن ملجم والأقدارُ غالبةٌ هدمت ويلك للإسلام أركانَا.
2. قتلت أفضل من يمشي على قدمٍ وأوّل الناس إسلاماً وإيماناً.
3. وأعلم الناس بالقرآن ثمّ بما سنّ لنا الرسول شرعًا وتبياناَ.
4. صهر النبي ومولاهُ وناصرهُ أضحت مناقبه نورًا وبرهانا.
5. وكان منه على رغم الحسود له مكانَ هارونَ من موسى بن عمران.
6. وكان في الحرب سيفاً صارماً ذكراً ليثاً إذا لقي الأقران أقرانا.
7. ذكرت قاتله والدمع منحذرٌ فقلت يبحان ربّ العرش سبحانا.
8. إنّي لأحسبه ما كان من بشراً يخشى المعاد ولكن كان شيطانا.
9. أشقى مراد إذا عدّت قبائلها وأخسر الناس عند الله ميزانا.

10. كعاقر الناقة الأولى التي جلبت على ثمود بأرض الحجر خسرانا.
11. قفد كان يخبرهم أن سوف يخضبها قبل المنية أزمانا فأزمانا.
12. فلا عفا الله عنه ما تحمّلهُ ولا سقى قبر عمران بن حطان.
13. لقوله في شقيّ ظلّ مجترما ونال ما ناله ظلماً وعدوانا.
14. ياضربة من تقيّ ما أراد بها إلاّ ليبلغ من ذي العرش رضوانا.
15. بل ضربة من غويٍّ أورثته لظى مخلداً قد أتى الرحمان غضبان.
16. كأنه لم يرد قصداً بضربته إلاً ليصلى عذاب الخلد نيرانا.(محمد بن رمضان 67/64، 1966)

سنحاول في هذا المقام إبراز المقومات الحجاجية والأبعاد التداولية الموجودة في هذه القصيدة، لكن قبل الخوض في ذلك آثرنا شرح بعض المفردات التي تبدو صعبة أبرزها قوله في البيت السابع (ذكرا): ويقصد بها أنّ شفرة سيفه كانت من أجود الحديد، وقوله في نفس البيت (ليثاً): يقصد بها انّ شفرة سيفه كانت شديدة البياض، أمّا قوله في البيت الحادي عشر (يخضبها) فيقصد بها أنّ علياً رضي الله عنه كان يخبر الصحابة أنّ رجلاً يضربه بسيفه فتبتلُّ لحيته بالدم وتختضب به.

### 3.3 تداولية حجج الإيتوس في مرثية حماد.

تستمد بعض القصائد قوتها الحجاجية من الصورة الحسنة التي يرسمها الخطيب لنفسه, «ذلك أنّ الصورة التي يُكونها المتلقي عن القائل تساهم في تعضيد القول وترفع من فعاليته الإقناعية والحجاجية» (مصطفى الغرافي، 50، 2013)، ويُرسم حماد في مرثيته صورةً لنفسه أكسبت شعره قوةً وجعلته نافذاً ومقنعاً, فقد تصدى في هذه الأبيات إلى مهمة جليلة وعظيمة تتمثلت في دافعه عن علي بن أبي طالب أحد كبار الصحابة وأولهم إسلاما وإيمانا، وصهر النبي صلى الله عليه وسلّم، وأحد أهل بيته، فيقول في هذا الصدد:

قتلت أفضل من يمشي على قدمٍ وأوّل الناس إسلاماً وإيماناً.
وأعلم الناس بالقرآن ثمّ بما سنّ لنا الرسول شرعًا وتبياناَ.
صهر النبي ومولاهُ وناصرهُ أضحت مناقبه نورًا وبرهانا.

فتسخير مثل هذه الاتيوسات التداولية التي تُبرز قيمة ومكانة علي بن أبي طالب، من شأنها تهيئة المتلقي لموضوع القصيدة، ودفعه إلى التفاعل معها والتعاطف مع علي بن أبي طالب الذي يملك مكانة خاصة في الذاكرة الجماعية لدى المسلمين وذلك باعتباره صهر النبي وأحد أهل بيته، وبهذا تكسي حجة الإيتوس أبعاداً تداولية ذات طاقات إقناعية من شأنها تحقيق المقاصد المرسومة، والأهداف الحجاجيّة المأمولة التي يتوخاها حماد، هذا، وينحث حماد لنفسه صورة تعكس مدى تأثره بمقتل علي بن أبي طالب، فيقول:

ذكرت قاتله والدمع منحذرٌ  فقلت يبحان ربّ العرش سبحانا.

يرسم لنا حماد في هذا البيت صورة لنفسه المفجوعة بمقتل علي بن أبي طالب، وهذه الصورة من شأنها أن تنهض بوظائف تداولية تدفع بالمتلقي إلى التفاعل مع ما يُعرض عليه من آراء وأفكار وتصورات، وبهذا يُصبح الإيتوس في مرثية حماد معطى سابق عن اللغوس(الخطاب) يعكس فضائل علي التي ينكرها أحد، بالإضافة إلى الأخلاق والفضائل التي يتمتع بها حماد باعتباره أحد المدافعين عن رجل من آل بيت النبي.

### 4.3. تداولية حجج اللغوس في مرثية حماد بن بكر التيهارتي .

اهتمت البلاغة في ثوبها المعاصر بمجمل الآليات الحجاجية، والسياسات الخطابية التي يعتمدها الخطيب لمقاصد تداولية تمكنه من تحقيق الإقناع والإنجاز, سواء كانت بلاغية منطقية أو لغوية لسانيّة تداولية, وقد أفضى النظر في مرثية حماد إلى وجود بعض المقومات الحجاجية التي استعان بها حماد في سبيل تحقيق عمليتي الإقناع والتداول، وسنحاول في هذا المقام استجلاء هذه الإمكانيات والطاقات الحجاجية التي استعان بها في تحصيل التصديق والإذعان.

- **تداولية الواقع الحجاجية المدرجة في المرثية le faits.**

تمثل الوقائع التداولية كل ما هو مشترك بين عدّة أشخاص أو بين جميع الناس بحيث لا تكون عرضة للدّحض أو الشك (عبد الله صولة، 24، 2011), وقدْ استعان حماد في قصيدته بجملةٍ من الوقائع مثّلت نقطة انطلاق للمسار الحجاجي التداولي, ويتمثل هذا المنحى في قوله:

قُل لابن ملجم والأقدارُ غالبةٌ هدمت ويلك للإسلام أركانَا.
قتلت أفصل من يمشي على قدمٍ وأوّل الناس إسلاماً وإيماناً.
وأعلم الناس بالقرآن ثمّ بما سنّ لنا الرسول شرعًا وتبياناَ.
صهر النبي ومولاهُ وناصرهُ أضحت مناقبه نورًا وبرهانا.
وكان منه على رغم الحسود له مكانَ هارونَ من موسى بن عمران.

استهلّ حماد قصيدته بجملة من الوقائع المشتركة بينه وبين متلقيه بحيث لا يمكن لأحد أن يعترض عليهِ أو يشكك فيما يقوله، فلا يمكن لأحد أن يعترض على أنّ علي بن أبي طالب أولّ الرجال إسلاماً وإيمانا، ولا يمكن لأحد أن يشكك في علم علي، ولا يمكن لأحد أن يعترض على القرابة التي بين علي وبين النبي صلى الله عليه وسلّم، فالوقائع المسخرة في هذه الأبيات تعكس مناقب علي بن أبي طالب ومكانته التي لا يمكن التشكيك فيها، فهي بمثابة البديهيات عند المسلمين، وبالتالي يمكن القول أن هذه الوقائع التداولية جاءت كممهدات ومرتكزات تُسهّل على المتلقي التفاعل والإنخراط مع دعوى حماد، وتمكن حماد في نفس الوقت من استعطاف المتلقي واستمالته إلى صفّه.

- **تداولية القيم الحجاجية المدرجة في المرثية les valeurs.**

إنّ مدار الحجاج على القيم، فهي غداء أساسي يُعوّلُ عليه في جعل السامع يذعن لما يُطرح عليه من آراء وما يُبسط له من حقائق،(عبد الله صولة، 26، 2011) لذلك نجد بعض الأشعار تميل إلى تحقيق الإقناع استناداً إلى منظومة القيّم السائدة في المجتمع لأنها تحظى بذلك الإجماع والتوافق الذي يمكن من تحقيق الإقناع والتداول, وقد أدار حماد بن بكر مرثيته على جملةٍ من القيّم والمناقب التي عُرف بها علي بن أبي طالب، كما عمد إلى استحضار جملةً من القيّم المضادة التي عُرف بها عبد الرحمان بن ملجم وعمران بن حطان، وهذا التناظر في منظومة القيّم من شأنه تحصيل التصديق وترسخ الإعتقاد لدى المتلقين في مكانة علي بن أبي طالب، ورسم صورة قاتمة لقاتل علي ومادحه، ويتحقق هذا المنحى التداولي في قوله:

قتلت أفصل من يمشي على قدمٍ وأوّل الناس إسلاماً وإيماناً.
وأعلم الناس بالقرآن ثمّ بما سنّ لنا الرسول شرعًا وتبياناَ

صهر النبي ومولاهُ وناصرهُ أضحت مناقبه نورًا وبرهانا.

وكان منه على رغم الحسود له مكانَ هارونَ من موسى بن عمران.

وكان في الحرب سيفاً صارماً ذكراً ليثاً إذا لقي الأقران أقرانا.

يُفعلُ حماد هي هذه الأبيات جملة من القيّم والمناقب التي عُرف بها علي بن أبي طالب، وتوزعت بين قيّم مجردة، وقيم محسوسة، من القيم المجردة نذكر: (علم علي، أسبقيته في الإسلام، إيمانه، قربه ومصاحبته للرسول) أمّا القيم المحسوسة نذكر: (شجاعته في الحروب، مصاهرة النبي)، فالقيم التي استحضرها حماد في هذه الأبيات تضطلع بوظائف تداولية من شأنها أن تدفع بالمتلقي إلى تبني المواقف التي يعرضها حماد، والتخلي عن كل المعتقدات الأخرى التي قد تسيء لعلي، إذْ لا يخفى على أحد انّ هذه القصيدة تتجاوز المعطى الشعري الظاهر إلى العقدي الخفي، فحماد في هذه الأبيات يرّد على عمران بن حطان الذي يُعدّ شاعر الخوارج وفقيههم وخطيبهم، فالقصيدة بمثابة حرب بين المدرسة السنية التي يمثلها حماد، والخوارج في ممثلهم عمران بن حطان

كما يرسم حماد في هذه القصيدة صورة قاتمة لعبد الرحمان بن ملجم المرادي ولمادحه عمران، صورة من شأنها أن تدفع بالمتلقي إلى تبني موقف تدالية معادية لهذين الرجلين، يقول في هذا الصدد:

قُل لابن ملجم والأقدارُ غالبةٌ هدمت ويلك للإسلام أركانَا.

قتلت أفضل من يمشي على قدمٍ وأوّل الناس إسلاماً وإيماناً.

إنّي لأحسبه ما كان من بشراً يخشى المعاد ولكن كان شيطانا .

فلا عفا الله عنه ما تحمّلهُ ولا سقى قبر عمران بن حطان.

لقوله في شقيّ ظلّ مجترما ونال ما ناله ظلماً وعدوانا.

ياضربة من تقيّ ما أراد بها إلاّ ليبلغ من ذي العرش رضوانا.

بل ضربة من غويٍّ أورثته لظى مخلداً قد أتى الرحمان غضبان.

يقدم لنا حماد في هذه الأبيات عبد الرحمان بن ملجم وعمران بن حطان في صورة المجرمين اللذين اقترفا جريمة لا يمكن أن تغتفر لهما، فعمد إلى نحث جملة من الصور التي تحمل قيّماً سلبيةً من شأنها أن تخلق غضبًا عارمًا وتأزما نفسياً لدى المتلقي، فيرسم لنا عبد الرحمان بن ملجم في صورة (القاتل، والهادم للإسلام، والشيطان، والشقي، والظالم، والعدو، والغوي، والمخلد في النار) وهذه الصور التي تعتمد على التكثيف من شأنها أن تدفع بالمتلقي إلى إنكار فعلة هذا الشقي الذي قتل أفضل من يمشي على قد في عصره، هذا ويقدم لنا حماد صورة عن عمران بن حطان في وهذه الصورة تعكس تشفي عمران ومناصرته ومادحه وافتخاره بفعلةِ عبد الرحمان بن ملجم، وبهذه القيم نجح حماد في تكوين صورة من شأنها أن تدفع بالمتلقي إلى تبني مواقف مناصرة للتصورات والتوجهات التي يقدّمها حماد.

- **تداولية المواضع الحجاجية المدرجة في المرثية.**

تعدّ المواضع من الحجج الفاعلة في الخطاب التداولي، فهي عبارة عن حجج جاهز تمثل سلطة توافقية بين أفراد المجتمع المسلم، وتعرف في الدراسات التداولية المعاصرة بأنها تلك المخازن والمستودعات التي تمنح للمحاجج اختيار الحجج التي تناسب خطابه، (عبد الله صولة، 106، 2011)، وقد أفضى النظر في مرثية حماد وجود جملة من المواضع التوافقية التي تشكل سلطة تعزز من نفود خطابه وتمكينه في كيانات متلقيه، فيقول:

وكان منه على رغم الحسود له  مكانَ هارونَ من موسى بن عمران.
كعاقر الناقة الأولى التي جلبت  على ثمود بأرض الحجر خسرانا.

1. يتقاطع حماد في البيت الأوّل مع الحديث النبوي في قول رسول الله صلى الله عليه وسلّم في علي: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هرون من موسى.؟» ،(البخاري، 913، 2002)، أمّا في البيت الثاني فيتقاطع مع قوله تعالى: («فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ» (الأعراف/77)، وعليه يمكن القول أنّ الموضع الأول ينتمي إلى الحديث النبوي، ويضطلع بوظائف تداولية من شأنها تمكين مقتضى القول في نفوس المتلقين، لأنّ الحديث النبوي يمثل سلطة مرجعية لا يمكن أنّ يعترض عليها أحد، أمّا الموضع الثاني فهو

موضع قرآني توافقي استند إليه حماد لترسيخ تصوراته المناصرة لعلي وتثبيتها، ودفع متلقيه إلى تصديقها وتبنيها اعتقاداً وعملاً، وقد يقول أحدّ انّ نظرية الموضع قد تلتقي مع نظرية التناص عند جوليا كريستفا، إلاّ أنّنا نفرق في هذا المقام بين نظرية المواضع التداولية ونظرية التناص، فالمواضع هي عبارة عن خطابات ذات سلطة مرجعية نافذة غير متنازع حولها بين المتلقين، أمّا التناص فلا يشترط تلك السلطة الموجودة في المواضع.

- **تداولية الحجة الشبه منطقية (تقسيم الكلّ إلى أجزائه).**

تستمد هذه النوعية من الحجج قوتها التداولية من مشابهتها للطرائق الرياضية في الصياغية والشكل، ويُطلق عليها أيضا حجة التفريع، أو التقسيم، وغالباً ما يعمد فيها المحاجج إلى تقسم الكل إلى أجزاءه المكونة له(عبد الله صولة، 48، 2011)، ويعدل حماد في مرثيته إلى هذه التقنيّة الخطابية أثناء تطرقه لمناقب علي بن أبي طالب ومكانته، فيعدّدُ هذ المناقب ويقسمها، ويمكن لنا أن نمثل لهذا المنحى التداولي بالمخطط التالي:

**(الكل) علي بن ألي طالب**

(أفصل من يمشي على قدمٍ) (أوّل الناس إسلاماً وإيماناً) (وأعلم الناس بالقرآن )

(صهر النبي ومولاهُ وناصرهُ) ( وكان في الحرب سيفاً صارماً ذكراً )

(وكان منه على رغم الحسود له مكانَ هارونَ من موسى بن عمران.)

يُعدّدُ حماد في هذا الأبيات مناقب علي بن أبي طالب، فيعمد إلى تقنيّة التقسيم والتفريع التي من شأنها ملأ الخطاب والتكثيف من طاقته الإقناعية وفاعليته التداولية، وعليه، نستنتج أنّ حماد لم يكتفِ بالإيجاز أثناء التطرق لشخصية علي، بل عمد إلى تقسيمها إلى الأجزاء المكونة لها وهذا التقسيم من شأنه أن ينهض بوظائف تداولية تضمن استمالة المتلقي واستعطافه ودفعه إلى تبني مواقف مناصرة لما يعرضه حمّاد.

- **تداولية الحجّة السببيّة في المرثية.**

تتأسس حجّة الوصل على جملة من التقنيات الخطابيّة التي تضمن التسلسل المنطقي السلس للخطاب، ويتحقق هذا عن طريق الروابط السببية التي تصل بين الحجج والنتائج، ويُسميها بيرلمان بالحجة البراغماتية التي يحصل بها تقويم عمل ما أو حدث ما باعتبار نتائجه الإيجابية أو السلبية(عبد الله صولة، 50، 2011)، وقد أشار ديكرو إلى هذه النوعية من التقنيات اللسانية وأطلق عليها مصطلح الروابط المنطقيّة التي تصل بين الحجج والحجج أو الحجج والنتائج (عبد الهادي بن ظافر الشهري، 244، 2016)، وقد شاع هذا الضرب من التقنيات الحجاجية في مرثية حماد، وخاصة عند تبريره سبب هجائه لعمران بن خطان وعبد الرحمان بن ملجم فيقول:

فلا عفا الله عنه ما تحمّلهُ ولا سقى قبر عمران بن حطان. ←النتيجة

الوصل السببي ←(ل)قوله في شقيّ ظلّ مجترما ونال ما ناله ظلماً وعدوانا. } الحجج

ياضربة من تقيّ ما أراد بها إلاّ ليبلغ من ذي العرش رضوانا. }

نستنتج من خلال هذه الأبيات أنّ حماد يبرر هجائه ومهاجمته لعبد الرحمان بن مجلم وعمران بن حطان، فيقدّم لنا حجج براغماتية مباشر يُعلل فيها هجومه العنيف على الرجليْن، فهجائه لعبد الرحمان بن ملجم راجع لقتله علي بن أبي طالب، وهجائه لعمران بن حطان راجع لمدح هذا الأخير لقاتل علي، وهذا يعكس ضمنيا الكره الشديد الذي يُضمره عمران لعلي، وعليه يمكن القول أنّ حماد قدّم لمتلقيه في هذه الأبيات حجج براغماتية مباشرة تعكس مواقف حماد وتصوراته التي ينتصر فيها لعلي بن أبي طالب، وهذا الانتصار من شأنه تمكين الحقائق المبسوطة والوقائع المعروضة وترسيخها في كيانات متلقيه اعتقادا وانجازاً.

- **تداولية حجّة النموذج وعكس النموذج.**

ترتبط حجّة النموذج وعكسه بشخص نموذج يصلح لأن يكون على مستوى السلوك قدوة معترف بها مظرا للفضائل والاخلاق التي تتمتع بها، أمّا عكس النموذج فهو مرتبط أكثر بشخص يُحذر من الإقتداء به، إنما يُوصي المحاجج بالإنفضال عنها(عبد الله صولة، 52، 2011)، وقد أدرا حماد مرثيه على نموذجين متعاكسين، يتمثل الأول في نموذج علي بن أبي طالب الذي يُمثل قدوة احتج بها حماد وقوى بها تصوراته وتوجهاته، أما عكس النموذج قتمثل في عبد الرحمان بن ملجم، وعمران بن حطان الذي يدعو إلى الإنفضال عنها وعدم الإقتداء بهما، ويمكن لنا أن نمثل لذلك بالمخطط التالي:

| النموذج (علي بن أبي طالب) | عكس النموذج (عبد الرحمان/ عمران) |
|---|---|
| أول الخلق إسلاما وإمانا<br>صهر النبي ومولاه وناصره<br>كان في الحرب ليثا صارما شجاعاً<br>أعلم النياس يالقرآن وبما سن الرسول لنا | قتل علي/ هدم أركان الإسلام<br>مدح قاتل علي/ الانتصار ل<br>شيطانا. |

إنّ حجة النموذج وعكسه في هذا الجدول جسدت الأشخاص بصورتين متباينتين متعارضتين، فما يقيمه حماد من تقابلات داخل خطابه يرمي إلى غاية تداولية تروم إقصاء نموذج وتثبيت آخر بسلطان ما يقدمه من حقائق ووقائع حول النمودجين، وبهذا يمكن القول أنّ حماد نجح في تصدير صورة علي التي تعدّ نمودجا غير متناع عليه بحكم ما تحظى به هذه الشخصية من قبول وتوافق لدى متلقيه، أمّا النموذج العكس فقد نجح في رسم صورة له من شأنها أن تحقق الأهداف التداولية المأمولة ألا وهي دفع متلقيه إلى نبذ هذه الشخصيات التي قامت بأفعالٍ لا تغتفر.

- **تداولية الاستدلال بواسطة التمثيل Analogie.**

يُعدّ الاستدلال بواسطة التمثيل من أهم الآليات الحجاجية التي تضمن الإقناع والدفع نحو الإنجاز، ويعتبره بيرلمان أداة مهمةً للبرهنة على الحقائق التي يُريد المحاجج إيصالها إلى متلقيه، وتظهر قيمته التداولية في التماثل القائم بين بُنى الخطاب، أي أنّ العلاقة الحقيقية الموجودة بين العنصر (أ) والعنصر (ب) تمثل نفس

العلاقة الموجودة بين (ج) و(د) (عبد الله صولة، 52، 2011)، ويمكن لنا أن نمثل لهذا المنحى التداولي في قول حماد:

أشقى مراد إذا عدّت قبائلها وأخسر الناس عند الله ميزانا.

كعاقر الناقة الأولى التي جلبت على ثمود بأرض الحجر خسرانا.

يمكن لنا أن نمثل لهذين البيتين بالمخطط التالي:

أ. قوم صالح الذين عقروا الناقة التي أوصاهم بها نبي الله خير.

الحامل ← ب. مخالفتهم لأمر نبيهم بعقر الناقة قد تكون سببا في دخولهم لجهنم.

الموضوع ← ج. عبد الرحمان بن ملجم قتل علي بن أبي طالب.

د.قتله لعلي قد يكون سبباً في دخوله النار مثل قوم صالح.

من خلال هذا المخطط يتضح أنّ حماد بن بكر عند إلى اسقاط ما هو معلوم وشائع لدى المتلقي، ألا وهو ذبح قوم صالح للناقة، على ما يسعى هو إلى التأسيس له ألا وهو مشابهة ما قام به عبد الرحمان بن ملجم لقوم صالح، ويخدم هذا التداخل بين القضيتين المآلات التداولية التي يسعى حماد إلى تمكينها في كيانات متلقيه، لصبح بذلك ما قام به عبد الرحمان لا يختلف عما قام به قوم صالح.

- **تداولية الفعل الكلامي في المرثية.**

يتحدد الفعل الكلامي في الدراسات التداولية المعاصرة باعتبار قوة إنجازية لها تأثيراتها على المتلقي، ويرى جون أستين وجون سيرل أنّ الفعل الكلامي مرتبط بالاستعمال، بمعنى أنّ اللغة لا تستعمل فقط لتمثيل العالم، ولكن تستعمل بالمقابل في انجاز الأفعال، فالمتكلم وهو يستعمل اللغة لا ينتج كلمات دالة على معاني فقط، بل يقوم بفعل ويمارس تأثيراً على متلقيه (نوار سعودي، 26، 2000)، وقد أفضى النظر في المتن الشعري الذي نحن بصدد مقاربته إلى وجود جملة من الأفعال الكلامية التي لها أبعاداً انجازية في الواقع، ومن أمثلة ذلك قول:

- **هدمت** ويلك للإسلام أركانَا.
- **قتلت** أفضل من يمشي على قدم.

- **فلا عفا** الله عنه ما تحمّلهُ / **ولا سقى** قبر عمران بن حطان.

تحتوي هذه التراكيب على جملةٍ من الأفعال الكلامية ذات طاقات تأثيرية إنجازية، فالتركيب الأول والثاني (هدمت/ قتلت) هي عبارة عن تراكيب خبرية لا مجال للشك في صحتها، لأنها تحتوي على أفعالا تعكس شناعة ما قام به عبد الرحمان ابن ملجم في حق علي بن أبي طالب وفي حق الإسلام.

أمّا التركيب الأخير (فلا عفا/ ولاسقى) فهي أفعال كلامية غرضها الدعاء على عبد الرحمان بن ملجم وعمران بن حطان، وهذا الفعل الكلامي يقتضي حصول هذا الدعاء كفعل إنجازي في الواقع، كما يرمي إلى إشراك المتلقي في الدعاء على الرجلين، وبهذا تتحقق الأبعاد التداولية لمثل هذه التراكيب.

## 4. خاتمة.

لقد أبانت المقاربة التداولية بشقيها الحجاج المنطقي والحجاج اللساني عن مرونة كبيرة في قراءة الخطاب الشعري والتفاعل مع البنى المكونة له, وترجع هذه المرونة إلى الإمكانات الإجرائية التي أتاحتها هذه المقاربة التداولية, فساعدتنا بشكل كبير على استنطاق الخطاب الشعري ورصد مختلف أبعاده الحجاجية التي ينبنى عليها, ومن بين النتائج المتوصل إليها في هذه القراءة التطبيقة مايلي:

- تهتم الدراسات الحجاجية بشقيها البلاغي واللساني بفعل الإقناع والدفع نحو الإنجاز، وهذا ما أدى بها إلى التقاطع مع الدراسات التداولية التي تروم الإنجاز والعمل.
- نجاعة المقاربة الحجاجيّة في استنطاق في جلّ مستوياتها المنطقية والبلاغية واللسانية.
- ثراء البنيّة الحجاجيّة في مرثية حماد بن بكر، واحتوائها على طاقات إقناعيّة ساهت في ترشيح دعواه في دفاعه عن علي بن أبي طالب.
- نجاح حماد بن بكر في ترشيح تصوراته ومواقفه المأمولة تُجاه علي بن أبي طالب.
- حسم حماد بن بكر نزاعه مع عمران بن حطان وذلك بتفعيل جملة من الحجج التي تحمل طاقات إقناعية ذات فعالية تداولية من شأنها استمالة المتلقي إلى صفه.

## 5. قائمة المصادر والمراجع.

1. صولة عبد الله صولة, الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية, دار الفارابي, ط، 2 لبنان, بيروت, 2007.

2. عبد الله صولة, في نظرية الحجاج (دراسات وتطبيقات)، مسكيلياني للنشر والتوزيع, ط، 1، تونس, 2011م.

3. محمد سالم ولد محمد الأمين, مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة, عالم الفكر، الكويت، مج 46، مارس، 2013م.

4. رشيد الراضي, الحجاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو, عالم الفكر, الكويت, مج, 34, سبتمبر, 2005 م

5. شكري البخوت, نظرية الحجاج في اللغة, مقال ضمن كتاب, أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية, 6. حمادي صمود، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، ط، 1، تونس، 2004م

7. عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات ضفاف، ط، 1، ، الجزائر، 2013م.

8. عماد عبد اللطيف, تحليل الخطاب السياسيي (نموذج إرشادي), ضمن كتاب بلاغة النص التراثي, إشراف, محمد مشبال, دار العين للنشر, ط، 1، الاسكندرية, 2013م.

9. أبي عمر يوسف القرطبي، الإستيعاب في معرفة الأصحاب، تح: عادل مرشد، أفريقيا الشرق، ط، 1، المغرب، 2004.

10. شاوش بن محمد بن رمضان، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، المطبعة العلوية، ط، 1، مستغانم، 1966م.

11. محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلّم، دار ابن كثير، ط، 1، دمشق، 2002م.

12. عبد الهادي بن ظافر الشهري، الخطاب الحجاجي عند ابن تيميّة(مقاربة تداوليّة)، إربد، ط، 1، الأردن، 2018م.

13. نواري سعودي أبوزيد، في تداولية الخطاب الأدبي، بيت الحكمة للنضر والتوزيع، ط،1، 2000م.